10 إميلي ديكنسون

الشاعرة الأمريكية التي يعتبرها النُقَّاد الآن أعظم شاعرة ظهرت فى العالم على مدار تاريخه .

كان شعرها انعكاساً لحياة العزلة المستمرة التي عاشتها طوعاً واختياراً، وقد تميَّزت مُعظم قصائدها بالأحاسيس الجديدة المثيرة، والـرؤى ذات الدلالات البعيدة، والتسابيح الصوفية المنطلقة فى عالم الروح.

عرف العالم شعرها بعد وفاتها، فهى لم تنشر فى حياتها سوى سبع قصائد فقط !!

كان للشاعرة أثرها الواضح على الشعر فى أمريكا فى مجال التجريب والتجديد، فى الشكل والمضمون على حدٍّ سواء.

«فخورة أنا بقلبى الكسير
طالما أننى لم أكسره
فخورة أنا بالألم الذى
يعصرني
طالما أننى لم أصنعه
فخورة أنا بليالى السهر
الطويلة
فقد تحملتها بدونِ أقمار
تلك هى عظمة الله بداخلي
حتى لو سُميت ذُلاً.

الميلاد وذكريات الطفولة :

ولدت «إميلى ديكنسون» Emily Dickinson فى العاشر من شهر ديسمبر عام 1830م، بمدينة أمهرست بولاية ماساتشوستس .

كانت عائلتها من عائلات نيو إنجلاند التى نالت حظاً وافراً من التعليم والثقافة والتشرُّب بروح الفكر والفن .

عاشت الطفلة «إميلى» فى جو أُسرى محافظ وحريص على تطبيق مبادىءالدين بلا تفريط وتهاون .

وكان والدها من المحامين المشهورين فى المدينة، وصار عضوًا في الكونجرس الأمريكي.

إميلى ديكنسون .. حياة غامضة، وعزلة خانقة !!

ما زالت حكاية «إميلى ديكنسون» حتى هذه اللَّحظة تُثير كثيراً من التساؤلات وعلامات التعجب بين مؤرخى الأدب الأمريكى، وإن كان يكفى نوعية المناخ الفكرى الذى نشأت فيه .

عاشت «إميلى» حياة منعزلة تماماً لدرجة أنَّها لزمت عقر دارها معظم فترات حياتها، فابتداء من عام 1856م وقد بلغت السادسة والعشرين من عُمْرها لم تخرج من بيتها إطلاقاً، وهو البيت الذى ولدت وماتت فيه، وهو السجن الاختيارى أيضاً الذى اختارته طوعاً وبمحض إرادتها، ويُقال إن أحدًا لم يرها بعد ذلك حتى من أهل المنزل لأنَّها لم تكن تخرج من غرفتها إلاَّ نادراً .

الفشل فى الحبّ .. وعدم الرَّغبة فى الزواج !

كانت «إميلى» تعشق الموسيقى عشقاً جارفاً، فهى ملاذها الوحيد . وقد نالت قسطاً وافراً من التعليم حيث تخرجت فى أكاديمية (أمهرست)، ثم عملت بعد ذلك بالتدريس فى المعهد اللاهوتى للنساء .

وهى لم تتزوج طوال حياتها، ويؤكِّد البعض أنَّها فشلت مرَّتين فى علاقتها العاطفية، وإنَّها آثرت بعد ذلك حياة الزُّهد والبُعد عن الناس، وعاشت منطوية داخل بيتها .

وكانت «إميلى» لا ترتدى سوى الملابس البيضاء ابتداء من عام 1860م أى وهى ما زالت شابة على مشارف الثلاثين من عُمْرها .

ومن الغريب حقاً أن قدر عدم الزواج لم يكن قدر «إميلى» وحدها، وإنما كان أيضاً قدر

شقيقتها الصُغرى «لافينيا» التى عاشت حياتها بلا زواج . أمَّا أخوها الأكبر «أوستن» فقد كان تعساً للغاية فى زيجته، وكانت تعاسته تلك مصدراً دائماً لقلقها وحزنها .

الطريق إلى النشر .. الذى جاء متأخراً بعد وفاتها :

لم تكن «إميلى ديكنسون» تنوى كتابة الشعر بطريقةٍ متعمدة، أو حتى الكتابة الأدبية من أى نوع، لكنها بدأت بكتابة خطابات إلى جميع أصدقائها ومعارفها . كانت تقضى أياماً بطولها فى كتابة هذه الخطابات التى تُعبِّر بها عن مكنونات نفسها وعن أحاسيسها نحو الآخرين .

لذا، لم يعلم الناس بشعرها إلاَّ بعد وفاتها، فلم تنشر فى حياتها إلاَّ سبع قصائد بدون رضاها التام، ولكن بعد وفاتها مباشرة اكتشفت الأسرة أن أدراج حجرتها مليئة بالقصائد التى تقترب من الألفين

إبداع «إمييل ديكنسون» الشعرى :

ظهر أول مجلد «لإميلى ديكنسون» عام 1890 م بعنوان : «قصائد إميلى ديكنسون» وبمقدمة من صديق الأسرة والكاتب الذى جمع القصائد وقام بتنسيقها «توماس هيجنستون» . ومن الطريف أن هذا الكاتب كان قد نصحها فى بداية حياتها الأدبية بعدم النشر لما رآه فيها من خرق لتقاليد القصيدة فى ذلك العصر .

كانت الرؤى العفوية المنطلقة التى احتوت عليها القصائد متناقضة تماماً مع الأسلوب الشعرى المنمق المفتعل الذى ساد أشعار تلك الفترة، لكن النُّقَّاد احتفلوا بالديوان عندما لمسوا أصالته التى تجمع بين النقاء الوجدانى والصفاء الفكرى وبين التعبير التلقائى البعيد عن الروح التطهرية التى سادت معتقدات أهالى نيو إنجلاند. لاقى الديوان نجاحاً كبيراً لدرجة أنَّه طبع ست مرَّات فى فترةٍ لا تزيد على أسابيع قليلة.

وفى عام 1891 م صدر الجزء الثانى من أشعارها . وفى عام 1893 م نُشرت

خطابات «إميلى» وهى نفس المجموعة التى نُشرت عام 1931م مزيدة ومنقحة، وفى العام نفسه صدر الجزء الثالث من أشعارها . وفى عام 1914 صدر الجزء الرابع من قصائدها .

وفى عام 1924م فجأة أصبحت «إميلى ديكنسون» شخصية مهمة للغاية فى مجال الأدب العالمى، أى بعد 38 سنة من وفاتها . وذلك عندما صدرت قصائدها الكاملة فى كتاب بعنوان «حياة» وخطابات إميلى ديكنسون» . وفى العام نفسه صدرت الطبعة البريطانية لأشعارها المختارة بمقدمة للناقد «كونراد إيكن» . بعد ذلك زاد الاهتمام والحماس لشعرها كل الحدود .

وفى عام 1929م صدرت مجموعة جديدة بعنوان «قصائد أُخرى لإميلى ديكنسون» واحتوت على ست وسبعين قصيدة .

وفى عام 1930م وهو العيد المئوى لميلادها، كانت حركة الإحياء التى شهدتها قصائدها قد بلغت القمة وأصبحت الشغل الشاغل لمعظم مثقفى تلك الفترة . وفى عام 1935م صدر مجلد جديد بعنوان : «قصائد غير منشورة لإميلى ديكنسون» .

السمات المميزة لشعر «إميلى ديكنسون» :

تميَّزت قصائدها بعالم من صنع خيالها، عالم يبحث وراء الحقيقة والجمال وغيرهما من المطلقات التى كانت تحلو لها السياحة بينها بعيداً عن ضغوط الحياة المادية .

لا فرق بين المُجرَّد والمجسَّد :

تبدو أفكارها وأحاسيسها وكأنَّها قادمة من عالم آخر زاخر بالرؤى المثيرة، والشطحات الصوفية، بل أكَّدت أنه لا فرق بين المجرَّد والمُجسَّد،فهذه كلها تقسيمات مفتعلة من صنع البشر ولذلك فإن «إميل ديكنسون» لا تنظر إلى الجمال والحبّ والعدالة على أنَّها تجريدات، بل كيانات شاهقة لها وزنها وكثافتها وأبعادها التى يصعب على شعراء كثيرين استخدامها الاستخدام الأمثل والسليم .

شعرٌ زاخر بالحكم والأمثال :

فى كثير من الأحيان تبدو أشعارها زاخرة بالحكم والأمثال، وصورها مشبعة بالمعانى والدلالات التى لا تبدو واضحة من القراءة الأولى . وفى معظم قصائدها تبدو مشبعة بالفكر غير التقليدى، والأحاسيس الجيدة المثيرة، والرؤى ذات الدلالات البعيدة، والتسابيح الصوفية المنطلقة فى عالم الروح . فهى ترى أن الوجود الحقيقى للإنسان ليس فى الاتحاد مع الآخرين، وليس فى الانتماء إلى هذا العالم ولكنه فى الوحدة مع الخالق وسياحة الروح فى عالم ما وراء المادة .

تتوالى الحكم والأمثال فى قصائدها بلا أدنى انفعال، فقد امتزجت تماماً بالصور والاستعارات وخرجت من نطاق التقرير المباشر إلى مجال التجسيد الفنى .

ولنتأمل أيضاً قصيدتها المعنونة «اليأس والخوف» حيث تقول فيها:

الفرق بين اليأس والخوف
يشبه الفرق بين اللَّحظة التي تتحطم فيها السفينة
والحالة التى ينتهى إليها هذا الحُطام .

***

العقل الهادىء بلا حركة قانع بما لديه
مثل قناعة العين على وجه تمثال نصفي
فهى تعرف أنَّها لا تستطيع أن ترى

تغليب الجانب الميتافيزيقى :

كانت الصورة الشعرية المفضلة التي تكررت فى قصائد «إميلي ديكنسون» كنغمة

أساس هى شخصية الطفلة المدللة التى تتخذ من الله سبحانه وتعالى - إلهاً وأباً لها، وتناجيه طمعاً فى المزيد من الحبِّ والحنان من خلال هذه الصورة استطاعت أن تُجسِّد وحدة الكون كله، وعلاقة الأرض بالسماء، والمادة بالروح.

كانت أبياتها مشحونة ومتفجرة بالمعانى المتعددة والمختلفة والمتناقضة فى الوقت نفسه . وإذا كانت النغمة لرئيسة هى الحبّ فهو ليس بالحبِّ التقليدى بين البشر كما نجد فى قصائد الآخرين، إنَّها تلك العاطفة الأزلية والأدبية التى تُشكِّل وحدة الكون وبدونها لا تقوم له قائمة . لذلك كان الجانب الميتافيزيقى متغلباً على ما عداه من عناصر أُخرى فى القصائد.

النزعة الرومانسية المتصوفة :

يقول النُقَّاد إن «إميلى ديكنسون» حملت لواء الرومانسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بعد أن أوشكت على الاندثار وهى نزعة تسرى فى معظم قصائدها لدرجة أنَّها تجد منتهى السعادة فى العزلة عن الآخرين ثم العزلة الكبرى فى الموت كما تقول فى قصيدة «الروح تختار مجتمعها» التى تتكلم فيها عن الموت بمنتهى العذوبة والرقة :

لأننى لا أستطيع أن أقف للموت

فقد تفضل هو بالوقوف لى .

لكنَّها لم تنكر ذاتها فى أشعارها، بل كانت تعتقد أنَّها طالما أن شخصها جزء لا يتجزأ من الكون فهى ترى الكون من خلاله، بل إنَّه كون فى حد ذاته، فتقول :

فخورة أنا بقلبى الكسير

طالما أننى لم أكسره

فخورة أنا بالألم الذى يعصرنى

طالما أننى لم أصنعه

فخورة أنا بليالى السهر الطويلة

فقد تحملتها بدون أقمار

تلك هى عظمة الله داخلى

حتى لو سُميت ذُلاً !

لقد اعتبر الناقد «آلن تيت» هذه القصيدة أروع القصائد فى اللغة الإنجليزية شكلاً ومضموناً، ولا شك فإن أروع قصائد «إميلى» هى التى تحتوى على المواقف الدرامية ذات الدلالات السيكولوجية النابعة من أعماق النفس البشرية. قالت فى أحد خطاباتها: «إن الغناء فى الشعر خير وسيلة للهروب من أحاسيس الخوف التى تطارد الإنسان أينما حل» . أى أن الوظيفة السيكولوجية للشعر تتمثل فى التنفيس، بل تخلق كياناً موضوعياً للقصيدة، يقول «آلن تيت» مُعلقاً على مذهبها الشعرى : «إن شعرها من أروع الاعترافات الشخصية التي عرفها الشعر، فهى اعترافات تكشف عن النفس البشرية كلِّها فى كل زمان ومكان، إنَّها النفس التى تتردد بين الشك واليقين، بين الظلام والنور، بين المعرفة والجهل، بين الخلاص واليأس منه .

تأملات عميقة فى الحياة والموت :

تُعبِّر «إميلى ديكنسون» عن تأملاتها العميقة الذاتية حيث تطرح القضايا الإنسانية الكبرى مثل : الموت والحياة والخلود، فى قصيدة «الموت» تصف الشاعرة لحظة الموت تصويراً هادئاً عميقاً، بعيداً عن العصبية والسطحية، ثم تصور لحظة نسيان الموت عندما تشرق الشمس من جديد فكأن الشمس فى نظرها هى الحياة .

يستغرق الموت برهة وجيزة

يُقال أنَّه لا يحدث ألماً

وإنَّه مُجرَّد إغماءة تدريجية

سرعان ما تغيب بعدها عن البصر

***

شريط الحداد الداكن لمدة يوم

عصابة الحداد على القبعة

ثم تشرق الشمس البديعة من جديد

وتساعدنا على النسيان .

وفى قصيدتها «الحياة والموت» تؤكِّد الشاعرة على أن الموت قدر محتوم على الجميع، مهما تمتعنا بالصحَّة والحيوية، ثم تبدو الشاعرة مقتنعة كل الاقتناع بأن الأحوال فى الجنة- بعد الموت - ستكون متوازية بطريقةٍ ما ..

إنني على يقين بأن الحياة قصيرة

كما إننى على يقين بأن الكروب مستديمة

فكثيراً ما تؤلمنا الأحداث

لكن لم كل هذا ؟

***

إننى مقتنعة بأننا جميعاً سوف نموت

وإن الحيوية والصحَّة مهما بلغت درجتهما

لن تقهر الفناء

لكن لم كل هذا ؟

***

إننى مقتنعة بأن الأحوال فى الجنة

ستكون متوازية بطريقةٍ ما .

إنَّه نوع جديد ومُحدَّد من التعادلية

لكن لم كل هذا ؟

obeikandl.com

دراسات عن شعر إميلى ديكنسون» :

بدأ الاهتمام بأعمال «إميلى ديكنسون» بدراسة علمية لـ «جريس ب . شيرر» بعنوان «التركيب الغريب للأفعال المستخدمة فى قصائد إميلى ديكنسون» فى مجلة الأدب الأمريكى عام 1935م وعلى الرغم من أن الدراسة كانت تميل إلى اللغويات أكثر من تركيزها على الجانب الأدبى فإنَّها كانت محاولة علمية جادة أبرزت الجوانب المتعددة فى شعرها والتى يمكن أن يتعرَّض لها النُّقَّاد، أوضحت الدراسة أن التلقائية العنيفة التي كتبت بها القصائد كانت سبباً فى أن الشكل الفنى لم يكتمل فى بعضها وكأنها لم تنضج بعد .

هذا وقت وجد المحللون النفسيون مادة خصبة فى حياتها الغريبة والغامضة لكى يشرعوا فى تحليلاتهم، ولكن قصائد «إميلى» كانت من العمق والخصوبة بحيث أبت الخضوع لتفسيراتهم المتعسفة.

التجربة الشعرية لـ «إميلى ديكنسون» فى ميزان النقد الأدبى :

عندما صدر الجزء الرابع من شعر «إميلى ديكنسون» عام 1914 م كانت آثار مدرسة النقد الجديدة قد بدأت فى شق طريقها، فاتهم بعض النُّقَّاد «إميلى» بعدم قدرتها على التحكُّم فى الشكل الفنى لقصائدها، وعدم اهتمامها بقواعد اللغة، وأوزان الشعر وقوافيه . لكن وجدت «إميلى» أيضاً من يدافع عنها، وبدأ جمهورها فى الازدياد ولكن تدريجياً .

ولعلَّ من الأخطاء التى ارتكبتها «إميلي» أنَّها كانت تكرر أفكارها وصورها، مع إهمال فى بعض الأحيان لتنظيم القصيدة بالشكل الذى يُسهل على القارئ فهمها وتذوقها . وقد لا نلومها على ذلك لأنَّ هذا القارىء لم يكن فى اعتبارها على الإطلاق عندما كتبت أشعارها، فهى لم تفكر فى النشر على الإطلاق، لذلك وقعت أسيرة التكرار

فى مجال الوزن واللفظ والإيقاع . لكن هذا لا ينفى احتشاد شعرها بالمحسنات اللفظية والبديعية المتعددة التى تمكنت من توظيفها تماماً فى القصيدة، وقدرتها على استخدام الألفاظ العادية فى مواقع غير عادية على الإطلاق مما يجعل كل ألفاظها وتعبيراتها تبدو جديدة كل الجدة وكأنها تستخدم لأول مرّة فى اللغة، وهذا أدق معيار لعظمة الشاعر وقدرته الفائقة على تطويع اللغة وإعادة صياغتها وتحويلها من مادة خام مشوشة إلى شكل جميل متناسق.

«إميلى ديكنسون» .. تأثيرها ومكانتها :

«إميلي ديكنسون» بذرت البذرة الأولى للمدرسة التصويرية التى تزعمتها بعد ذلك «إيمى نويل» و «أزرا باوند» فى أوائل القرن العشرين، بل إن استعاراتها وصورها أثّرت كثيراً على أشعار «أ.أكمنجر» و «أرشيبلد ماكليش» . تقول «إميلى» فى إحدى قصائدها:

لم يخبرنى قوس قزح أبداً

أن الريح العاصفة على وشك الهبوب

لكنه على أية حال أكثر إقناعاً

من كل الفلسفات التى عرفها الإنسان

وهى لا تحاول بذلك أن تحط من قدر الفلسفة، وإنما تريد أن تقول : إن قوس قزح هو الفلسفة بعينها وقد أدى حبها للطبيعة إلى النزعة الرومانسية التى تميز قصائدها القصيرة بصفة خاصة، لقد آمنت بأن الطبيعة هى كتاب الله المفتوح لكل من يقرأ، فالاتحاد مع الكون دون طمع فى ثواب أو خوف من عقاب هو خير ما يصل إليه الإنسان من فلسفة، تقول «إميلى» فى إحدى قصائدها :

نعم بالطبع أصلي

فهل يسمعنى الله؟

إنَّه يرعى الماء والهواء

والطائر بين الأغصان

ولست أقل من هذا الطائر

الرحيل :

مرضت «إميلى ديكنسون» بمرضٍ أصابها فى الكُلية ظلت تُعانى منه حتى توفيت فى الخامس عشر من شهر مايو عام 1886م عن عُمْر يناهز 56 عاماً .

obeikandl.com